مناقشة كتاب الزمزي

قراءة د. علي الشامي*

يحاول عبد المجيد الزمزي في كتابه «الإنسان من عصور التضليل إلى زمن القيام**» الخروج من إشكالية المعرفة المحدودة التي ينتجها العقل البشري واستكمالها بالمعرفة الوحيانية... ثم يسعى جاهداً (المؤلف) للإجابة على السؤال التاريخي المتواصل حول موقعية الإنسان بين الدين والعلم.

وفي قراءته النقدية للكتاب يرى الدكتور علي الشامي أن الجهد المبذول فيه ليس سوى محاولة للخروج من دوامة الهموم المعرفية التي لم يجد الإنسان على امتداد التاريخ سبيلاً للخروج منها، حيث يبقى الإنسان هاجساً للبحث في أسباب الوجود ومعانيه، في دلالاته وأسراره، وفي حقائقه ومتاهاته.

* أستاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانية.
** صادر عن دار الهادي للطباعة والتوزيع والنشر.

يغوص الأستاذ عبد المجيد الزمزي في إشكالية هذا الكتاب مثلما يغوص في أعماق أزمة الحضارة المعاصرة، وبينهما يكمن الهاجس المهيمن على هذا النص، أي الإنسان وهو ملقى وسط أمواج من الأسئلة، متلاحقة ومتصادمة ومتناسلة، بحيث يفضي السؤال إلى سؤال وتبقى الأجوبة مستعصية أو تائهة أو متسرِّعة أو تتحول إلى أسئلة جديدة.

وما الجهد المبذول في هذا الكتاب سوى محاولة للخروج من هذه الدّوامة، محاولة يمتزج فيها الأمل بالألم، والعاطفة بالموضوعية والإيمان بالعلم، وهو مزيج يرافق فصول الكتاب والهموم المتناثرة فيه حيث يحتل الإنسان مركز هذه الهموم، بما هو صانع أوهام حولها، أو ضحية الأوهام الملتفة على عنقه، وفي الحالتين يبقى الإنسان هاجساً للبحث في أسباب الوجود ومعانيه، في دلالاته وأسراره، في حقائقه ومتاهاته.

وقد أصاب مؤلف الكتاب في إدراج مأزق الإنسان المعاصر في سياق السؤال التاريخي المتواصل حول موقع الإنسان بين الدين والعلم، وهو سؤال البدايات بقدر ما هو سؤال الصيرورة والنهاية. وقد أبحر الإنسان في متون تواريخه حاملاً نفس السؤال الوجودي: كيف يستطيع الاستمرار وسط حدّي الدين والعلم؟ وقد سال حبر كثير حول هذا الموضوع، وكأنما الدين والعلم لا يلتقيان إلا في ساحات الوغى، وعلى أحدهما الانسحاب أمام الآخر.

وتؤشر أزمة الإنسانية اليوم إلى ضرورة البحث عن مسار آخر يعيد العلم إلى أحضان الدين، تماماً مثلما وضعه الإسلام حيث يكون العلم مدخل الإنسان لتثبيت إيمانه بالخالق، وحيث يكون الدين دافعاً للبحث في أسرار الوجود وتجلّيات القدرة الإلهية البادية في انتظام الكون .

ويبدو أن الكتاب يبحث في كل صفحة من صفحاته عن السبب أو الأسباب والغايات الكامنة في هذه الأزمة وقد أرخت بكل أثقالها على الإنسان في هذه اللحظة من التاريخ. هل ترجع الأزمة إلى الدين أم إلى العلم؟ وهل يكون الحل في إزاحة واحد منهما أم في تكامل وظائفهما وأبعادهما؟

وفي سياق الإجابة والبحث عن الحلول المناسبة، غاص الأستاذ الزمزي في تاريخ الغرب: المسيحية والكنيسة والسلطة والعلم. وكان ينتقل من مراجعة تاريخية

للمسيحية إلى قراءة نقدية للثورات العلمية، وعندما يقترب من تحليل التناقض بينهما، يبتعد عن تفسيره للدوافع الكامنة في أصل وفصل النزاع الذي جعل المسيحية ضعيفة أمام العلم، أو الدوافع التي مكّنت العلم من تهميش الدين وتحويله إلى مجرد طقس كنسي.

وبهدف التواصل مع هموم الكاتب والكتاب، وبخاصة بعد أن قرأته بطريقة أحسست من خلالها وكأنني قرأته من قبل أو كتبت مثله أو عانيت ثقل هواجسه ومراميه، فإنني أرغب في توسيع بعض محطاته، لاسيما منها تلك المتعلقة بتحليل الأسباب التي جعلت المسيحية تتراجع أمام العلم، والأسباب التي أنتجت مقولة: موت الله في الغرب.

عندما حاول جان - بول شارنيه، في كتابه"المشارق النقيضة، أو رؤية الآخر من خلال الذات"، البحث عن خاصية حاسمة لمعنى"الغرب"، وبعد أن استبعد خاصية المكان وخاصية الدين، لعدم ثبات الأولى وللأصل الخارجي للثانية توصل إلى المفارقة التالية: "إن المادية أو فلنقل: الاعتراف بالمادة... ثابتة من ثوابت الغرب". فالمادة وقد تصدّرت شواغل الغرب، بما هو كذلك، تفسِّر المسار المعقَّد والمؤلم لتاريخ الغرب مع ذاته والعالم. وهي، في البحث عنها والاستحواذ عليها والخضوع لمنطقها،كانت في أساس الصراع ضد الكنيسة والحروب بين الدول وتوجيه العلم باتجاه يخدم إنتاج مصادر القوة الضامنة لوسائل تحصيل المادة وتحويلها إلى ضرورة وجودية لطريقة الحياة، بصرف النظر عما تؤدي إليه من كوارث وحروب كان يمكن تجنُّبها في الغرب نفسه، وفي بقية العالم لو لم تكن المادة صاحبة الكلمة الأولى في تاريخ الغرب.

من الناحية العملية، كان الغرب يؤدّي دوراً مزدوجاً تجاه المسيحية، هذا الدور الذي يتيح له دائماً أن يقدِّم ذاته في صورة دينية. فقد خاض ضدها معركة الوجود الحر لعقلانية النهضة، انتصر فيها العقل على التفكير الديني، بحيث ترافقت نهضة الغرب مع تحجيم متزايد للمسيحية، وصل إلى ذروته في تحويل عقيدة المسيح إلى طقوسية جامدة مختصرة داخل الكنيسة وحدها. وعلى النقيض من ذلك، يظهر الغرب"مسيحية نافرة" تجاه"الآخر"، على الأقل طيلة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وكأن عالميته والمسيحية تصدران عن نص إيديولوجي واحد، أو أن الواحدة

منهما إيديولوجية للأخرى.

وبالتالي، فإن نهضة أوروبا اتسمت بخصوصية نافرة؛ فهي نتاج تفاعل متراكم مع تراث الإسلام الحضاري، بما هو المخزون المعرفي الذي نهلت منه أوروبا الإرث اليوناني، إضافة إلى ثمرات المعرفة الإسلامية المتنوعة؛ بيد أن خصوصيتها النافرة لا ترجع إلى مجرد إنكار هذا التفاعل، وإنما تعود إلى توظيفه في خدمة "المادة" التي تملك وحدها سر انتقال الغرب إلى الرأسمالية، وتفسِّر وحدها أيضاً البعد العالمي للرأسمالية، ليس من حيث هي نظام عالمي بقدر ما هي تحديداً النسق العام الذي يعطي الغرب القدرة على نهب العالم والسيطرة عليه.

ولكي تكون المادة ثابتة من ثوابت الغرب، كما يقول"شارنيه"، فإن إبداعات الفكر وتراث المعرفة العلمية والأصول الحضارية والدينية، الداخلية والخارجية، تظهر فقط كمساهمة في تأسيس الحافز المعنوي للنهضة، بينما ساهمت المادة في تحويل النهضة نفسها إلى حضارة والعلم إلى قوة والرأسمالية إلى نظام هيمنة واستقطاب على المستوى العلمي؛ وهذا يعني، أن المادة هي التي أدرجت ثورة الفكر وإبداعات العقل في سياق النهضة والحضارة والسيطرة، وهي التي تفسِّر أيضاً الأسباب التي جعلت مبادئ العقل وشعارات الثورة تختفي تدريجياً أمام سيادة الثروة والقوة.

"الشرف هو أي شيء نملكه، أو أي شيء نفعله، أو أية صفة نتصف بها، ويكون دليلاً على القوة وعلامة عليها... فالسيطرة والانتصار أمران شريفان، لأننا نحصل عليهما بالقوة... والثروات شريفة لأنها هي القوة"(١).

بهذه العبارات، اختصر"هوبر" التوجيه الرأسمالي الناشئ للنهضة والحضارة؛ ففي الداخل كان هذا التوجيه يبرِّر كافة أشكال الصراع ضد الكنيسة ونظام الإقطاع، ويؤسس لكافة أنواع التناقض المجتمعي ويقدِّم مسوِّغات إيديولوجية لسلطة جديدة تشرِّع التنافس والانقسام والاستغلال وتجريد الإنسان من ذاته وأخلاقياته. وفي الخارج، ترافق هذا التوجيه مع تعاظم العنف والإبادة ونهب الثروات وتدمير الثقافات.

ومما لا شك فيه، أن المسيحية، كعقيدة ونظرة إلى الحياة والعالم، كانت تمثِّل تحدِّياً لهذا التوجيه. وبالتالي، لن تحقِّق النهضة غاياتها الرأسمالية إلا من خلال التخلّص من هذه "المسيحية"، بما هي معطى أخلاقي لسلوكيات الأفراد والدول،

يتعارض مع السلوكيات التي باتت مؤسسة على منطق السوق - المادة، ومع سلطات تستمد شرعيتها من الثروة والقوة أكثر مما تعبِّر عن شرعية إلهية لسلطة بشرية.

وقد أنتجت النهضة علمانية شاملة في اللحظة التي تمكنت فيها الرأسمالية من فرض أخلاقياتها، أكثر مما عبَّرت العلمانية نفسها عن كونها التطور الطبيعي لأخلاقيات مسيحية ومنظومة فكرية مجتمعية لم تعد ملائمة لتطور العصر. تماماً كما استخدمت الرأسمالية ثورات العلم والعقل في سياق تعميم نظرتها إلى الإنسان والطبيعة والعالم، وفي توظيف هذه الثورات المعرفية بما يخدم مبدأي الثروة والقوة، أكثر مما تؤشر هذه الثورات إلى تقدم الإنسان في الحضارة. ومنذ كتب "مكيافيللي" قائلاً: إنه ينبغي على "الغالب أن يقوم بارتكاب أعمال القسوة كلها دفعة واحدة، حتى يشعر الناس بإحساس متزايد بالأمن والتقدم"، ورفع شعاره الشهير:"من الأسلم أن تكون مرهوباً، لا محبوباً"[٢]، أصبح كتابه "الأمير" أصلاً لندلرية وممارسة في المجتمع الرأسمالي.

وما إن استلهمت الرأسمالية نصائح "مكيافيللي" حتى بدأت النهضة بتكوين مجتمعي تقوده دولة "وثنية"، خاصة وإن "الوثنيين لم يؤلِّهوا سوى رجال مليئين بالمجد الدنيوي"، كما يقول "مكيافيللي"[٣]. فالدولة العلمانية تصبح، هكذا، مصدراً جديداً للدين والأخلاق يشرِّع المجد والثروة والقوة والطموح، ويعطي قيمة أسمى لديانة تصنع أبطالاً لا شهداء، وتنتج قادة أغنياء وليس مؤمنين فقراء؛ فلم تعد الدولة بحاجة إلى إرادة إلهية أو شرعية شعبية بقدر ما تحتاج إلى القوة، أو بالأحرى إلى أخلاق تصنع القوة والثروة، وتمنح الدولة الرأسمالية عقيدة جديدة، علمانية بالضرورة، طالما أن المجتمع لا يستمر بدون عقيدة.

وهكذا، خرجت العلمانية من رحم النهضة لتجسِّد نزوعاً يعطي الأولوية للمادة (الثروة والقوة) التي سرعان ما أصبحت عقيدة الدولة الرأسمالية."فقد أصبحت الدولة العلمانية مصدر السلطة التي تحكم بها، وصار الولاء السياسي والإذعان والوطنية بمثابة الدين الجديد. ونحن لا نزال نسمي أنفسنا مسيحيين لكن ولاءاتنا وارتباطاتنا ومشاعرنا تتوجه إلى القيصر (الحاكم) ودولته ولرموز السلطة التي تطرحها الدولة"، كما يقول "رايلي" [٤].

العلم والإيمان وموت الله:

بعكس الإسلام تماماً، نسف العلم الحديث علاقة المعرفة بالإيمان، بمعنى: أنه عزل العلم عن الحكمة، والعقل عن الوحي، الأمر الذي أدّى إلى تهميش "الإلهي" وخلق غاية جديدة للعلم: عبادة الآلة. وسواء أكانت هذه الآلة عقلانية أو سلعة أو نظاماً أو قيمة أخلاقية واجتماعية، أو كانت رغبة فردية أو علاقة مجتمعية أو مهنية أو انفعالاً نفسياً أو موقفاً من العالم والبشر والأشياء، فإنها، وبأية صورة ظهرت، تجسِّد حالة معطاة في العقل والفعل، تتناثر ظواهرهما في تفاصيل الحياة اليومية للغرب وفي خلفيات مواقفه تجاه ذاته وتجاه الآخرين. فمنذ ما يزيد على الثلاثة قرون والعقل الغربي يتجه بصورة ملحوظة ومفارقة نحو إلغاء كل معرفة لا تصدر عنه؛ فالعقل الإنساني هو الأصل، والوحي هذيان. وبديهي أن ترتكز مقولة: رجحان العقل على السببية الإلهية، على العلم بوصفه أداة هامة يستخدمها العقل لإثبات لاجدوى الإيمان بتدبير إلهي لنظام العالم، ولإثبات اللافائدة من العلم على أساس من الحضور الإلهي في العالم. وإذ يمارس العلم والعقل هذه المهمة، تصبح كل الطرق ممهّدة أمام ديانة جديدة، رمزها الساطع الآلة، وغايتها العليا المادة، وقد ساهمتا معاً - المادة والآلة - في خضوع الحياة كلها لمنطق العلوم والتقنيات، وتحول الوسائل إلى غايات. وفي النتيجة، بدأت الحضارة الغربية في تمثُّل واختزال هذه التحولات بما يخدم القوى الماسكة بزمامها، ثم ما لبثت أن دفعت هي نفسها، والإنسان الذي يتماهى معها، الثمن الفادح لهذه التحولات: تحول العقل إلى مصدر وحيد وشامل للمعرفة، وتحول العلم إلى إيديولوجية، وتحول التقنية إلى إرادة الإرادة...

وهكذا، تعرفت الحضارة الغربية على "العقل" في سياق إزاحته للوحي، وباشرت بناء أنموذجها استناداً إلى هذا العقل، الذي وصفه" نيتشه " بأنه صنم الفلاسفة الأكبر:"آمنوا بقدرته على اكتشاف الحقيقة والوجود وجعلوه الحاكم المطلق واعتبروا قوانينه قوانين الوجود... ثم فصلوه عن الحياة، وجعلوه فوق الوجود، لا جزءاً منه يعبِّر عن ناحية من نواحيه العديدة. فقال البعض : إن مبادئه متعالية قبلية، أي سابقة على التجربة، وعليها تقاس محتويات التجربة، وبها وحدها تدرك. وقال الآخر: إنه العالم جميعه، فهو في باطنه وداخله. وقال فريق ثالث: إن التطور

التاريخي ليس إلا العقل وهو يعرض نفسه؛ وهكذا جعلوا منه إلهاً ، ذا سلطة إلهية وجوهر إلهي..."

ففي زمن الذهنية اللاهوتية للعصور الوسطى، كان"المجنون وحده يقول في قلبه، في سريرته: ليس هناك من إله"، كما يقول القديس "أنسلم"(١٧٧). وفي زمن العقلانية الناسوتية لعصور العلم والحضارة كان المجنون وحده هو الذي يبحث عن الله وسط عدمية عارمة ويعترف صارخاً:"لقد مات الله وسيظل ميتاً ونحن الذين قتلوه؟ كيف نعزّي نفوسنا، نحن أشدّ القتلة إجراماً؟ أقدس ما كان العالم يقتنيه وأقواه حتى الآن، نزف دمه تحت طعنات سكاكيننا..."، وفق ما جاء على لسان الرجل المجنون في مقطع من كتاب"المعرفة الفرحة"، كان "نيتشه" قد أعطاه عنوان"موت الله" فاتحاً بذلك عاصفة من الجدل لم تهدأ حتى الآن (١١٨).

وكانت قد بدأت في أعقاب الاكتشافات العلمية الكبرى التي رافقت بدايات النهضة؛ فقد حاول"باسكال"، في منتصف القرن السابع عشر، تحليل"الشعور الجديد بوضع الإنسان العابر في الكون"، بعد أن فقد ثقته بمكانته المركزية في هذا الكون، وقد حل محلها الرعب إزاء صمت الامتداد اللانهائي للفضاء؛ وبدت الأدلة على وجود الله وعلى مصير الإنسان الأبدي غير مقنعة، وحتى لو اقتنع الناس بها فهل يمكن لإله يوجد بمثل هذه الأدلة أن يكون هو الإله الذي يحتاج إليه الإنسان حقاً؟! أم أن الإله الذي يحتاجه الإنسان إنما يوجد عن طريق الإيمان وحده، فهو:"إله إبراهيم، وإله إسحق، وإله يعقوب لا إله الفلاسفة والعلماء؟"(١١٩).

كان رهان"باسكال" على وجود الله محاولة يائسة لتجاوز الإماتة الحتمية اللاحقة؛ لكن"نيتشه" لم يكرِّر محاولة"باسكال"، وجاهر بحديثه عن موت الله في الغرب، رغم"أن الحديث المريع لا يزال يهيم على الطريق"، فيقول شارحاً هذه المفارقة في تاريخ الأزمة الفكرية والحضارية الراهنة:"... صفاءنا -"الله قد مات"- هو الحدث المعاصر الأكثر ضخامة... هو الفعل حيث الإيمان بالإله المسيحي قد أصبح عارياً من معقوليته، وهذا الحدث بدأ يرخي ظلاله الأولى على أوروبا... صحيح أن قلة من الناس تملك رؤية جيدة وحذراً متيقظاً لإدراك هكذا مشهد؛ ويبدو، على الأقل لهؤلاء، أن شمساً توشك على الاختفاء، وأن ضميراً قديماً وعميقاً قد أصبح شكاً... ولكن نستطيع أن نقول، بصورة عامة: أن الحدث أكبر بكثير،

وبعيداً جداً وخارج مفاهيم العامة، بحيث لا يبقى عندنا إلا إيصال هذا الحدث إلى الأفكار.... عندنا الحق للتفكير، بعقل قوي، بأن العديد من الناس يحسبون حساباً محدداً لما هو حاصل، وكل ما سينهار حالياً، بما فيه وجود الإيمان ملغوماً، الإيمان الذي كان قاعدة ومرتكزاً والأرض المغذّية لكثير من الأشياء، ومن بينها الأخلاق الأوروبية كلها"(١٢٠).

ويتساءل "كارل يسبرز": كيف يمكن أن يكون الله قد مات؟ لماذا يقتل الناس الله؟ ويجيب قائلاً:"لأن الله يرى أعماق وهاوية الإنسان... الإنسان لا يحتمل أن يبقى حياً شاهداً من هذا النوع..."(١٢١).

أما"مارتن هيدغر"، فيقول عن المعنى من حدوث إماتة الله في الغرب:"الإماتة تعني تنحية العالم الروحي القائم بذاته، وإزالته على يد الإنسان، هي تعني أن الإنسان في عصره الآلي الحديث، ما عاد يترك مجالاً لهذا العالم الروحي القائم بذاته، كي ينير ويتلألأ بنفسه ومن نفسه. الأرض موطن الإنسان، ومحل إقامته، جردت من شمسها نور ذلك العالم الروحي، الذي كان كالشمس، آخذ في اطراد يزداد نمواً وامتداداً وانتشاراً..."(١٢٢).

وقد تجلت هذه الإماتة في مفاعيل ونتائج"الصراع على الأرض"، الذي لاحظ "نيتشه" بداياته. ومنذ الحربين العالميتين إلى آخر إبداعات العلم والتكنولوجيا، وما تبشّر به من حروب وأزمات، كان"موت الله" الوجه الآخر لانهيار ذاتية الإنسان وتفاقم خيبة الأمل من القيم البديلة والنظم الجمعية، التي أصبحت عبارة"عن علب فارغة لحياة منهكة حتى العظم"، حيث يظهر الإنسان وكأنه"بدون وحدة داخلية، تحت وطأة النزوات، اللحظات، كميات الإرادة والأحاسيس بدون تتابع، بدون صلة، بدون ديمومة"(١٢٣). ويصل إنسان الحضارة المنفصلة عن الألوهية، في نهاية الأمر، إلى حالة من عدم الحاجة إلى الفهم أو البحث عن المعنى؛ فهو يعيش في نفي لا ينضب: نفي الألوهية، نفي القيم الفردية، نفي القيم الجمعية... وكما جاء على لسان "مولر- لوتر":"لا الله الخاص بالمسيح ولا الله الذي نادت به الفلاسفة يثير اهتمام إنسان هذا العصر، الذي لم يعد يصارع لا الأول ولا الثاني، والذي لم يعد يجد فائدة في النقاش أو الرفض. لا يبحث إنسان اليوم عن طريقة لفهم العالم انطلاقاً من

ذاته، ولا أن يكون إنساناً بدون ضمان ميتافيزيقي. بالنسبة إليه لم يعد هناك ثمة خير، شر، مسؤولية، شعور بالذنب، ارتباط بنظام، واجب... لهذا السبب، لا يمكن لهذا الإنسان أن يكون في العمق مصلحاً، أو ثورياً، لأنه ليس أخلاقياً وليس لا أخلاقياً؛ ليس متفائلاً وليس متشائماً، غير معنيّ بالإنسان ومصيره، وغير معنيّ بتطور وسيرورة التاريخ...". وبناء عليه، يعيش إنسان الحضارة الغربية في حالة نفي مضاعف:" نفي ما أرادت الأجيال السابقة إنقاذه بأي ثمن... ونفي الإيمان بإمكانية الاندماج في بنى جمعية مؤهلة لاستعادة "أنا" الأفراد المحطمة". وهكذا تغدو المرحلة الراهنة بمثابة"الانتشار الجدلي لموت الله، الذي يحدِّد منذ نيتشه، الوعي الأوروبي"(١٢٤).

بيد أن الإيمان بالألوهية لم يترك الساحة نهائياً، وينسحب أمام هذا النفي المضاعف. فالعلاقة بين الإنسانية والألوهية لا تزال محتفظة بخيط اتصال لم يتمكن التقدم العلمي من قطعه بصورة تامة وجذرية؛ ذلك أن العلم الذي وضع"الكون" بين يدي الإنسان، ساهم أيضاً في تبيان ضحالة معرفته بهذا الكون بحقيقته المطلقة والنهائية، وبموقعية الإنسان وحاجته لرؤية وجوده بالذات خارج حدود هذا الكون، وهو الأمر الذي أعاد السؤال القديم - الجديد المتعلِّق بلغز الحياة ومعناها؛ وإذ تعجِّل ضغوط التقنية ومجتمع الاستهلاك بضرورة الإجابة على هذا السؤال الذي أوصلته تكنولوجيا الحرب إلى ذروة المأزق، فإن الإجابة المنتظرة باشرت التقاط تفاصيلها في عودة متسارعة نحو الدين.

وفي هذا السياق، تندرج ظاهرة العودة إلى الإيمان وأصول الدين في كل مكان: في الغرب، حيث يعاني الإنسان من وطأة المأزق الذي تركه، بدون أمل، بين ازدهار "المادة" وانحطاط "الروح"، وفي خارج الغرب حيث الانبهار بحضارة الغرب لم يترك سوى الفراغ والمأساة وحيث يفتح الدين أو الإيمان أو الثقافة الخاصة باباً وحيداً للخلاص. وبهذا المعنى، يكون الاتصال الجديد بالدين عاماً وشاملاً للغالب والمغلوب. فالأصولية الدينية لا تظهر اليوم بمثابة ظاهرة خاصة بمجتمع محدَّد أو بعقيدة واحدة. وهي تظهر على السواء، رغم اختلاف الدرجة، في مجتمعات إسلامية وهندوسية وبوذية، وتنمو ببطء في مجتمعات كاثوليكية وبروتستانتية وأرثوذكسية،

وتفعل فعلها في يهودية الدولة والشتات على ما بينهما من فرقة الأوطان ووحدة المصالح والمعتقد.

ومما لا شك فيه، تحمل هذه الأصوليات بذور الاختلاف والصراع فيما بينها، لكنها إذا تعمقّت في أصولها، لن تلبث أن تجد قاعدة مشتركة للحوار والتفاعل، في اللحظة التي تظهر فيها "المادة" عائقاً يعترف الجميع بمدى الضرر الذي لحق بهم من جرائه، سواء أولئك الذين يعيشون على حافة الفقر والجوع، أم أولئك الذين يئنون من وطأة الإسراف والتخمة. وبالتالي، فالعالم كله، بعد أن أصبح صغيراً ومرئياً، سوف يبدأ مرحلة جديدة من المصالحة بين العلم والإيمان، كما ستبقى المصالح والسياسات خصماً مشتركاً للباحثين عن خلاص ما في تفاعل حضاري أو اعتراف عقائدي متبادل.

من جهتها، تأتي المسيحية في مرتبة الأصل الثالث لحضارة الغرب الحديث، بعد أثينا وروما. ورغم أنها شكّلت، ولا تزال، وجهاً ملازما للغرب منذ القرون الوسطى، وقبلها مع الإمبراطورية الرومانية، ورغم أن مؤرخي الغرب جعلوا منها أحد أهم مصادر الحضارة الأوروبية، إلا أن التجربة التاريخية للغرب الحديث والمعاصر لا تساعد على تصنيف المسيحية كأصل روحي وفكري لحضارته الراهنة. فإذا كان الغرب قد تماهى باستمرار مع المسيحية، وهذا صحيح دائماً، فإن هذا لا يؤكد انبعاث الحضارة من مكبوت عقلي جاءت المسيحية ففجّرت طاقته المبدعة، دون أن يعني ذلك أنها لم تؤثر في تاريخ الغرب وفي تطور نظامه الفكري والأخلاقي بشكل عام؛ بيد أن ما يعنينا هنا، ليس إهمال الجانب الروحي وإنما التأكيد على "المادة" كحقيقة ثابتة في حضارة الغرب. أي أنها -أي هذه الحضارة - لم تكن في جوهرها مسيحية ولم تتأسس على حافز روحي؛ صحيح أن الغرب كان باستمرار يظهر في العالم "مسيحياً"، ولكن ما هو صحيح أكثر أن حضارته الحديثة أتقنت نسج وإظهار العلاقة بين المسيحية وبين تعميم ذاتها في العالم، بحيث يمكن الجزم بأن الغرب استفاد من المسيحية واستخدمها في مواجهة خصومه في الحضارة والتجارة والسياسة، وأنه بالتالي، لم يكن وهو يحقق وينشر أنموذجه العالمي، في أصله مسيحياً، ولا يجوز اعتبار حضارته الراهنة مسيحية في الأصول والنتائج. وكما يقول المطران "جورج خضر": ليس هناك "ما يدل على أن الحضارة الغربية بصورتها

الحاضرة، هي بمقدار عظيم، حضارة مسيحية...".

عندما استخلص "جان ـ بول شارنيه" أن المادة هي "ثابتة من ثوابت الغرب"، لم يكن استخلاصه اعتباطياً،خاصة وأنه ينطلق من إعادة وصل النهايات بالبدايات والأصول. فالنتائج الراهنة لسيادة المادة على الحضارة والدولة والحياة تمثل استمرارية منطقية لنزوع مادي أصولي كامن في تاريخ الغرب، منذ النهضة وبعدها وقبلها؛ وهذا يعني أن الصورة الراهنة للحضارة إنما تمثّل مسار هذا النزوع وتجلّياته وظواهره السلبية والإيجابية، والذي وصل إلى ذروته من خلال عزل الحضارة عن الألوهية، بما هي إرادة تدبير وهداية؛ بحيث تكون الحضارة تطويراً للذات بما يخدم تقدمها وسعادتها انطلاقاً من وعي البشر وتعلقهم لغايات التوازن بين حاجات الإنسان وثروات الطبيعة، بين أبعاده الروحية والمادية، بين إمكاناته العقلية ووسائله المادية وغايته الإنسانوية والتوحيدية؛ وبحيث تكون الحضارة أيضاً مدخلاً لتفاعل الجماعات البشرية على قاعدة التأسيس الإلهي لمبدأ المساواة والعدل والمحبة بين البشر.

بيد أن الأصولية المادية لحضارة الغرب ساهمت في تكوين ذاتية غربية قائمة على انفصال الفكر والدولة والمجتمع والأخلاق والمعرفة العلمية والتقنية عن الغايات الكامنة في صميم التدبير الإلهي لنظام العام؛ كما في أبعاد الهداية الإلهية للبشر. إضافة إلى مساهمتها في تأسيس عالمية أنموذجية لا تتفق ومبادئ التفاعل والتكامل والتعاون التي نادت بها الرسالات السماوية كأساس للمساواة بين البشر الذين خلقهم الله من نفس واحدة .